نهاية الزقاق

قصة بقلم : فؤاد حبيب

الافكار تتجمع في رأسي ككتل كبيرة من الحديد الساخن ... كلها تتصارع من اجل ان تخرج الى حيز الوجود ، ولكنني لااحب الافكار حية مكتوبة على ورق .. احبها ميتة .. كم يلذ لي ان انسج من هذه الافكار اسطورة جميلة ، ولكن اللذة تشتعل في جسمي حينما ادوس هذه الافكار بكعب حذائي ... واشم رائحة اللحم الميت .. الماضي التافه الذي يحبه الناس .. الماضي الذي يسوقني الى صحراء جافة ينعب فيها بوم عجوز .. جدي يتحدث بهدوء عن الماضي .. الف مرة سمعته يقص لي نفس الحادثة التي كان هو بطلها .. كم يلذ لي ان اصرخ في وجهه .. انت كذاب مدع .. ولكنني اخاف .. اخاف لطمة من كف أبي العريض يدوي بها خدي .. لماذا يحب الناس الماضي ... الا يشعرون بثقل ظلهم وهم ينفضون الغبار عن ايام سلفت .. انا لا احب الماضي فهو يترك اثرا مقيتا اصفر فاقعا ، كلما نظرت اليه شعرت بالقرف والاشمئزاز ..

انني اكره معلم التاريخ لانه واحد منهم ... من الناس الذين يحبون الماضي .. انا اناني .. مغرور .. آفتي انني احب امتلاك كل مافي العالم من القهقهات من افواه النساء .. انا اريد ان احصدها .. اريد ان ارى العالم صامتا كأنه في بداية سنة جديدة وحزينا كأنه يشيع جثمان المسيح .. ومتألما كأنه نهر الموت ابتلع عاشقا جديدا ... انا وحدي اريد ان اقهقه .. ان امزق الصمت الموحش ثم لا يهمني أن شتمني العالم كله بعد ذلك وقذف بي بعيدا في جوف دوامة من الغبار عائدة الى موطنها .. الى صحراء الجنوب .. فاكون قد حققت امنيتي .. جبت عالما جديدا لم اره بعد .

لقد سألتني حبيبتي في ساعة غضب :

ـ لم تسأل عن كل هؤلاء الفتيات ...؟

ـ انحسبينني اريد امتلاكهن .. لا .. انني اسأل عنهن فقط لانهن صديقاتك ..

ـ لا بل قل انك تحبهن جميعا ..

ـ وهل في هذا عيب .. احيانا احس انني احب العالم كله ..

ـ لا بل قل انك تحب كل يوم فتاة .. أنت افاق ..

ـ انا افاق ...! وهل جئت بشيء جديد .. كلنا افاقون ... معلمي افاق .. ابي افاق .. كل الناس افاقون ... فقط بعضهم يستطيع ان يكبت الافاق الذي يعيش في اعماقه باغلال قوية من الارادة والبعض الاخر لايستطيع .

ـ انت مجنون ... تهذي .. انا لااحبك .. وبصقت في وجهي بصقة سوداء كأني بقايا بيضة فاسدة ، فأحسست ان شريانا من دم الظلام قد انفجر في وجهي ..

انا اعيش في فراغ كبير .. فراغ اسود بلون الحقد .. ضحكت البارحة حين سألني طفل جارتي السمينة :

ـ لماذا يأكل الناس ؟

ـ ليملأوا شيئا من الفراغ الكبير الذي يعيشون فيه ..

ـ ما هو الفراغ الكبير اولا ..؟

ـ انه سطل يخيل لك انه مملوء بالماء .. ولكنك حين تلمسه تجده فارغا .

ـ أنت كذاب ..

حتى الطفل الصغير يتهمني انني كذاب مسكين انا .. ابله انا ... لماذا لايصدقني الناس .. الانني فقير معدم .. ام لانني لااستطيع ان اشوه الحقيقة ... انني اصبحت اكرههم ... احتقرهم .. ابغضهم جميعا .. حتى ابناء الزقاق الضيق الذي امر منه كل يوم لاصل غرفتي بدأت اشعر انهم اقماع سجائر متناثرة على الارض .. دائما تشع منهم رائحة نتنة كتلك التي شممتها يوم خرجت من بطن امي ... انني لااحبهم ولا افرق بينهم وبين الكلاب الجائعة التي تفتش عن عظمة بالية.. اشعر حين يقتربون مني انني اعيش في بطن سمكة .. جوفها مظلم .

في عيون نسائهم تعيش شهوة .. وبين شفاههن يموت كل دقيقة لون احمر غامق .. كلون البسمة التي تطلقها مومس في وجه زبون جديد .. انا لااحب نساء هذا الزقاق فسمعتهن مشبوهة .. لحمهن يبقى معروضا في النوافذ بلا ثمن .. كأنهن اجراس كنيسة مهجورة تحولت الى مركز عصابة فاسدة ..

تجف البسمة على شفتي كلما مررت بهذا الزقاق الضيق .. فاحس ان امامي الف شبح عار يستثيرون في اعماقي الجوع الى لقاء كومة من اللحم المعطر .. وادخل غرفة يشع منها رائحة المطاط المحروق .. أدخلها وعلى شفتي ابتسامة باهتة تكاد تسقطها رائحة العطر الذي يستقبلني بكلمات ميتة متآكلة ... وتثور في نفسي رغبة قاتلة الى جرعة كونياك رديء لاستطيع ان اقاوم هذه الرائحة التي تدفع في نفسي سخرية جبل بأكمله .. اين انا ؟... في غرفة مومس ... ماذا أفعل ؟.. لاشيء فقط سأنظر اليها من بعيد .. باللتفاهة مع مومس ... لحمها له رائحة غريبة تذكرني برائحة الزفت المحروق ... علي ان اضبط اعصابي .. ان اثبت امام صدرها المهترىء كانه بقايا قباب مهدومة .. ويسندني الكرسي بحياء مصطنع فهو ادرى الموجودات بامري ... يعرفني من عيني الجائعتين .. من نظراتي الملتهبة كعينين قط بري .. من دمي الذي تجمع كله تحت عيني ...

لكنني ارتجف .. ارتجف كأنني مقدم على قتل انسان .. نظراتي لااستطيع ان اسمرها في مكان واحد لئلا تحسبني خجلا فتستغل ضعفي ... من هذا الذي ينظر الي وفي عينيه الف سؤال ؟.. انه طفل جريء يتهمني بانني افاق .. عيناه فيهما حزن مستمر كارملة صممت الا تتزوج ... ماشأني به ؟.. لابد انه يعرفني .. يعرف من انا .. تماما كما يعرفني الكرسي .. لا .. لا مهلا ايها الطفل .. انا لست كما

نظن ... انا فقط حاولت ان ارى جسد هذه المرأة دون ثياب .. ثم سأنسحب ببطء بعد ان ادفع الثمن .. لازلت تنظر الي كأنني عود كبريت مشتعل استهواك منظره .. تمهل .. تمهل ايها الطفل ... لاتقتلني بنظراتك فاحسبك راعي الكنيسة حين كان يسمع اعترافاتي ..

ـ قل لي من هذه المرأة

ـ انها امي

اخرجها من فمه الصغير كأنها حبل متين قيدني به .. حاولت ان استعطفه بعيني الصامتتين لكنه كان يحدجني بنظرات مؤلمة تدفعني الى الغرق في اعماق بركة البشرية الاسنة .. .هل يفعل ذلك مع كل الرجال الذين يجلسون على هذا الكرسي .. لابد انه طفل عملاق يحدد مايريد بصمت تتخلله انفاس مومس .. هل يستطيع ان يقف مانعا دون رغبتي .. سأصرخ في وجه امه ابعديه من امامي .. انا لااود ان ارى لحما ممزقا بانيابي .. ابعديه ففيه رائحة يستنشقها ضميري بنهم ولذة.. ابعديه .. قد يميت الرغبة في ان اراك عارية .. ان في نظراته الف مسيح مصلوب .. لا اود ان ينظر الى يدي وهي تدق مسامير صليبه وتقترب امه بعد ان اعدت الغرفة .

ـ اهلا

تنطقها بمهارة فتاة احلامي .. حبيبتي القديمة اف .. انني اشبه القنفذ بالارنب الاليف .. لا اريد ان اذكر شيئا سوى انني امام كومة من اللحم الذابل .. ولكن شبها واضحا بين سيقانها وسيقان حبيبتي .. لقد رأيتهما في خلوة لنا عند حافة النهر .. يالي من غبي لااريد ان اطيل التأمل في ماضي التافه .. ساقاوم كل شيء في سبيل ان ارى هذه المومس عارية ..

ـ كم تأخذين مقابل ان اراك عارية ؟

ـ مسكين انت ! حسبت انك ستفعل كل شيء ولذلك رتبت الغرفة وكنت اود ان استميحك العذر بالا تضغط على نهدي ففيهما حليب لطفلي .

طفلك ايتها النتنة .. ابعدي من امامي .. كنت اود لو لم تذكري طفلك ولبنه لحاولت ان ابيع نفسي للشيطان .. اتخلى عن انسانيتي .. ولكنني احس بفراغ الكلمات وهي تتأرجح بين شفتي .. ساخرج بلا كلمات ميتة انطقها كأنني امضغ مطاطا جافا ..

وطرق الباب خلفي بشدة ، ودوت صفعة قوية على خد صغير امتلأ بحمرة دموية .. كحمرة الغروب فيها ائتلاق وفيها موت ، وسمعت بكاء طفل ينبح كأنه ضمير انسان حي ، واستقبلني الشارع مرة ثانية كأنه بالوعة قذرة تعيش فيها الف دودة .. بالوعة قديمة مملوءة بالاوساخ قد تنفجر في اية لحظة .

بصقت اخر ماتجمع في حلقي من لعاب الشهوة على جدار الزقاق الاسود ، وشتمت كل ماحولي ، وطأطأت رأسي نادما كأنني دجاجة تنبش الارض برجليها ... لافتش عن كلمة خرساء اطلقها على نفسي .. انني افاق .. لست قذرا كما كنت اظن .. لي عائلة .. لي اسم .. لاتعيش في دمي انياب ذئب .. انا اكره الناس .. لا ابغضهم . .ابغض فيهم ماضيهم فقط .. انني احبهم وهم يتكلمون .. يثرثرون في المقاهي ولكنني افضلهم فوق بنايات حديثة الكبيرة يبنون جدرانها بدماء تنزف من عضلاتهم القوية .. احب امي وهي تنشر الخبر لجارتنا العجوز خاليا من اية كلمة صحيحة ، ولكنني اشعر انها اقرب الى قلبي حين اراها تغمس يديها المتعبتين في طشت الغسيل المملوء بكومات الثياب القذرة .. احب الناس جميعا ... احبهم وهم يتسامرون وراء الجنازة بلغة البكاء ولكنني اود لو يصمتون او يبتعدون عن الجنازة بعد ان يرسموا اشارة الصليب على صدورهم ويلقوا نظرة حزينة الى السماء ثم يندفعوا ببطء نحو اعمالهم ..

انني احب العالم .. .احب ابتسامته الكبيرة .. الابتسامة التي تقودني الى حديقة ورد ينشد فيها بلبل احدى اغنيات الربيع ، واحب شعاع الامل المزروع في مخيلة كل انسان .. الامل الذي يحفزنا على التقدم وبين شفاهنا نغمة شاعر مكافح لايؤمن بالفشل .. جميعنا سنمر بقرب الطاحونة المتداعية المهجورة التي يبني فيها العنكبوت نسيجه الرمادي ونتأمل الغراب الاسود الذي يقص ماضيه بنغم بطيء ممل كطنين ذبابة وقحة .. يحدث به شجرة متخشبة ممتدة فروعها في الصمت كأنها انسان قلق ، وسنلقي التحية للغراب بحرارة ثم نستمر في طريقنا حتى نختفي في عناق ابدي مع دودة تأكل لحم الانسان بشراهة . نهايتنا واحدة لكنني لا احب ابي وهو يتمتم كل مساء لقد ذهب يوم .. اربع وعشرون ساعة ذهبت .. ثم يبصق كرة صفراء يودع بها الساعات الراحلة .. كلنا راحلون وامهاتنا جميعا سيلبسن السواد ففيه نغمة حزينة كأجراس كنيسة دخلها ميت ..

حتى سماء بيروت اراها فوق رأسي سوداء كثوب ارملة .. لم يبق عشاق بيروت فيها نجمة واحدة الا وحصدوها .. ظلامها معتم كصومعة راهب مات دون ان يعرف احد امره ... يسعل بشدة كأنه مصاب بداء الرئة والغيوم الداكنة تبكي بحرقة كانها طفلة يتيمة ، وقطرات الماء تنسكب عن قنطرة انفي في تحد وعناد فامسح بباطن يدي حباب الماء التي تشعرني بظمأ قاتل لان اسكب في فمي برميلا كاملا من الخمر المعتق .. اشربه في صحة البشرية

انني لا اكره الناس .. لا ابغضهم .. فقط احاول اصلاحهم .. انني اقرأ كل يوم كتابا عن الفلسفة والاجتماع والتهم عشرات القصص بساعات فراغي ... انا لا احب الجلوس مع اصدقائي حول طاولة النرد ، ولا استمتع بلعبة « الهند » حتى لو كانت مع اعز الاصدقاء .. اشعر دائما انني مسؤولا عن البشرية كلها .. ابي يجب ان يكون احسن حالا .. فأسه المهترئة القديمة يجب ان ابدل بها فأسا جديدة .. امي سازرع لها حديقة صغيرة امام كوخنا المتداعي .. جارنا الذي يعيش في الغرفة المجاورة ساسعى لاحالته على المعاش .. ولكن من انا حتى افعل ذلك .. انا لا زلت طالبا .. على وجهي دمعة كفاح وبين شفتي ابتسامة خضراء .. شعري قصير مسدل على وجهي باهمال .. يقولون انني اشبه انتوني بركنز .. لكنني احس ان لي كياني الخاص .. لا احب ان يسميني الاصدقاء انتوني .. حتى ولا غير انتوني .. انا اسمي عزام لكن جميع اصدقائي يلقبونني « افاق » .. كانت هذه التسمية قد بدأت حين قالت مدرسة الادب الانكليزي مازحة .. « في عينيك يا عزام ترسو الف الف سفينة » .. كانت تحب عيني لانهما مصنوعتان في بلادها وقد استخلص احد اصدقائي من قسم الفلسفة ان العيون الزرق لم تخلق لطلاب الجامعة بل وجدها قدماء الناس ملصقة في الحفرات المتهدمة تحت جباه عمالقة البحار .. اؤلئك الذين يجوبون العالم على سفينة شراعية ... وصرخ في وجهي بفمه الاعوج الذي يجيد به تقليد النطق الانكليزي

ـ انت افاق

ـ انني لا استحق ان اكون افاقا

لا ... لا .. ان كل شيء فيك يدل على انك افاق .. لحيتك التي

لا تحلقها الا بعد ان تخاف الطالبات من منظرها .. قميصك البسيط وبنطالك الملتصق على جسدك وشعراتك المتدلية على جبينك كأنها مجداف تسوقك نحو العميق .. العميق من المحيط .

للمرة الثانية اسمع هذه الكلمة .. انا افاق !

انني احس ان هذه الكلمة تدغدغ كبريائي وتشبع غروري . تماما كما تمس الابتسامة في داخلي اعمق احساس بالانسانية ... الابتسامة حتى لو كانت بين شفتي اخرس انني اجد فيها نورا سماويا وترتيلا دينيا صافيا ممزوجا بأنغام موسيقية عذبة .. آه لو انال ابتسامة من بين شفتيك يا امي .. ولكنك بعيدة عني .. في القرية الخضراء تجممين روث البقر .. القرية التي هجرتها من عشر سنوات يوم حطمت لعبتي الصغيرة المحشوة بقصاصات الورق ، ولم اعد اليها .. انني احبها قريتي الصغيرة ... احب سماءها البيضاء كانها ثياب عروس لم يحن زفافها بعد .. احبها كقرنفلة ملونة ترسل عطرا شذيا يابى ان يموت.. كنغمة من لحن شيق عذب .. انني احب قريتي .. احب شوارعها المرصوفة برمل يشبه لونه شفتي عذراء لم تعرف الزينة بعد .. كفتيات قريتنا . احب مقهاها المهمل تحت شجرة توت عجوز .. المقهى الذي يحتاج الانسان لدخوله شهادة ميلاد تثبت انه اصبح رجلا ... لا تزال الرغبة في دخوله مشنوقة في صدري .

انني احب قريتي .. احبها كلمحة جذابة من صباح مشرق تتفتح فيه الف وردة .. لا بد ان اعود اليها .. اعود لاحمل عن ابي العبء الثقيل الذي هدم كتفيه ... فغدا عجوزا تلمع صورة القبر في محياه .. انا لا احب ابي ميتا .. كفأسه القديمة ... احبه رجلا يقهقه بصوت مرتفع كما يفعل الراهقون .. ساعود لامسح الدمعة المنسكبة بين الاخاديد التي حفرتها الاقدار في وجه امي .. سأصنع منها سيدة كأولئك اللاتي يعشن في المدن .. سأحقق لها كل ما تتمنى . فقط اريدها ان تطلب من الله ان اكون من بين المتخرجين هذا العام .. لااود ان تسأله كي يجد لي عملا فالحكومة هي التي ستؤمن لي العمل لانها ارسلتني على حسابها الخاص الى بيروت .. آه لو تستطيع امي ان تقنعه بان يضم اسمي تحت قائمة الناجحين .. انا احب صوتها وهي تهمس في اذن السماء كلمات الصلاة .. احسها دائما بجانبي .. واشعر اني بحاجة الى الثرثرة معها .. فانا احب الثرثرة .. احبها لانها تنبع من بركة القلق الكبيرة .. البركة التي تصدر الفقر لامثالنا البسطاء .. لماذا اشعر ان افكاري تافهة حين تصطدم عيناي بوجهها الذي تنعم فيه حقول مزروعة بالبرسيم الاخضر ... لماذا احس عندما اسمع همساتها الرقيقة انني مقيد في هذا الزقاق فاندفع بخطواتي السريعة اريد ان اصل الساحة الكبيرة التي ينتهي عندها الزقاق المعتم لابدأ حياة جديدة .

انني احب الناس ... ولكنني اجد بعض اعمالهم دنيئة كنفوسهم المتآكلة ... فانا لاادري لم يمزق هذا الطالب الصغير الاعلان السينمائي الملصق بالحائط الاسود .. ايكون مدفوعا من شيخ او قسيس بحافز الفضيلة ؟.. حتما لايفكر رجال الدين في ارسال اناس يتولون اعمالهم .. سيمزقونه بانفسهم لو ارادوا .. اليسوا هم رسل البشرية والديانات وخادمي الرب ، الذين يقودون الناس الى السماء ؟.. ولكن مهلا فقد اظلم الطالب المسكين .. سأسأله .. سأسأله بنفسي .. سأقترب منه بهدوء لئلا يفر هاربا .

– لاتبتعد ايها الطالب

– ماذا تريد مني ...! ماذا تريد ...! انا لم افعل شيئا !..

– لم مزقت الاعلان ؟

– لاجلد به كتابا مدرسيا

تذكرني نظراته بطفل المومس الجريء ... لكن هذا الطالب لايزال يحسبني سأعاقبه .. انه يركض بسرعة حتى يختفي عند اول منعطف .

يالي من مغفل .. انني اتهم الناس زورا بالرذيلة .. ساخرجها بصفة اشتم فيها كل افكاري السوداء .. املؤها كازا اسود اصبه على الحقد الدفين المتحجر في اعماقي .. الحقد المتولد من نظرات الجشعين والمرابين النهمة ، وارفق بالبصقة عود كبريت مشتعل .. لن احرق نفسي .. بل سأحرق الاسلوب القديم الذي يأبى الا ان يبني في جوفي قلعة حجارتها مغلفة بالحقد . سأحب الناس على طريقتي الخاصة ولن اكف عن فكرة الاصلاح التي بزغ شعاعها في ذهني .. تماما كما انني لن اكف عن التهام المجلدات والكتب القيمة حتى املأ هذا البطن الاجوف ... سأعيش افاقا كل ليلة مع كتاب جديد . سادع نافذتي مفتوحة لتدخل منها رياح الثقافات فتنصب في جوفي كانها نهر من حليب الاطفال اللذيذ ..

وسأمسح كل قطرة تخرج عن دائرة فمي بظهر يدي كما يفعل السكارى في حفلة يعوزها النظام .. سأكون افاقا مهذبا .. سأحاول ان اعتذر لفتاتي .. انني احبها .. لن اتركها مرة ثانية .. سأحفظ ارق اشعار الغزل .. واصبها في اذنها بصوت رخيم تعيش فيه بحة قديمة لها طعم لذيذ .. ساقترب منها وارنو اليها في دهشة واعلق على شفتي صفرة متيم تماما كما يفعل عاشق مراهق .. سأشبع كبرياءها المسروقة من كبرياء الملائكة وسادفن الماضي الذي يزعجنا في قبر احفره بمخالبي وارتل في رشاقة انشودة الكنيسة التقليدية .. ثم اضع على بلاطة القبر زهرة اعتذار يفوح منها بريق الاعجاب بعيني حبيبتي ... سوف تلتقي عيوننا في موجة من الموسيقى الصامتة ...

وسأندفع بعدها هاربا من الزقاق دون قيد .. سأسكب قارورة الكونياك على الارض واقذف بالزجاجة الفارغة نافذة المومس المضيئة بلونها الاحمر القاني كأنها اشارة مرور .. .حتما سيشتعل اثاث المومس .. لو لدقائق وستضيء نافذتها الزقاق فاتمكن من حمل رجلي الثقيلتين بوحل الماضي اللعين .. واقذف بنفسي لاعانق صدر الحياة بابتسامة كبيرة .. وشهادة موقع عليها اسم العميد ... تستقبلها امي بزغرودة مجلجلة .. .فيهمس الاصدقاء في اذني

– مبروك ... مبروك ياعزام ... لقد اجتزت الزقاق .. وصلت نهايته ..

ولكن من يدري فقد اكون واقفا في بداية زقاق جديد ؟!

المفرق (الاردن)

فريد حبيب

مدرسة المفرق الاعدادية

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون ٢٢٩٢١